قبل موعدها:

بدأت المعركة الانتخابية فى إسرائيل!

أنيس منصور

أكتوبر

أخطأ فيلسوف إغريقى قديم عندما أعلن أن كل شىء فى الدنيا ثابت . لا حركة . ودليله على ذلك أنك لكى تقطع مسافة فأنت تقطع نصفها أولا ، ثم نصف النصف وهكذا . . وعلى ذلك فأنت غير قادر على الحركة ! . .

والفيلسوف اسمه زينون . .

وأخطأ فيلسوف آخر اسمه هرقليطس عندما قال إنه لا يوجد شىء ثابت . وإن كل شىء متحرك . انظر إلى النهر . إنه يتغير . فالنهر الذى تنزله الآن ليس الذى نزلته قبل ساعة أو بعدها . .

فالثبات نسبى والحركة نسبية . والحركة المحدودة هى الخطوة . خطوة وبعدها سكون ثم خطوة أخرى ، فهى حركة تتخللها لحظات من الثبات !

وفى الأشياء المادية كما فى العلاقات بين الناس . . فيوم أعلن الرئيس السادات أن مبادرة السلام كانت نهاية لسياسة الخطوة خطوة . لم يكن يقصد أن مبادرة السلام نفسها ليست خطوة . إنما هى خطوة كبيرة جدا إذا ما قورنت بخطوات فك الاشتباك الأول والثانى . ولكن خطوة المبادرة كانت هائلة . والذين قارنوا بين نزول الرئيس السادات إلى القدس ونزول الإنسان على القمر ، لابد أنهم يتذكرون ما قاله ذلك الرائد فوق سطح القمر : هذه خطوة قصيرة لإنسان ، خطوة كبيرة للإنسانية ! . .

ومبادرة السلام كانت خطوة نحو خطوات أكبر من الانسحاب من سيناء . فالهدف هو الانسحاب من الأرض المحتلة كلها وقيام الدولة الفلسطينية .

وكان المفروض أن أول انسحاب من سيناء يقف عند خط العريش – رأس محمد . ولكن إسرائيل رأت أن هذه خطوة أكبر مما يحتملها الرأى العام الإسرائيلى . وأن المبادرة كانت صدمة عنيفة . وأن هذا الانسحاب هو صدمة أخرى . ولذلك كان من « الضرورات النفسية » أن يكون الانسحاب هو الآخر خطوة بعد خطوة ، أو مرحلة تالية لمرحلة .

ولذلك يمكن أن نقول إن الخطوة الأولى الكبيرة لمبادرة السلام قد انتهت أو أوشكت ، ولابد أن تجئ خطوة أخرى طويلة لها نفس الأثر والقدرة على التغيير .

ولذلك تسارع الدول الأوروبية أن تأخذ المبادرة – أى المبادرة بمبادرة أخرى جديدة .

ولم تفلح دول الرفض أن تتقدم بأية خطوة . أو تركب على أكتاف الدول الأوروبية لتخطو بها نحو السلام الشامل .

ولكن المشكلة التى تواجهنا الآن دون أن ندرى . هى أننا نسينا التطبيق التدريجى للسلام الشامل . وجعلنا نتبنى القضايا التى رفضناها وهى : حل كل المشاكل معا ، أو رفضها معا . فنحن الآن نطالب بالضفة الغربية والقدس وقطاع غزة . وهذا مطلب أساسى . ولكن لابد أن نعود مرة أخرى إلى

د. شمعون شامير فى حديث مع الرئيس السادات استمر ساعتين عن التاريخ اليهودى فى مصر وعن المبادئ الثقاف ومراحل السلام

ارنولد توينبى .. بعد انتصار اسرائيل على مصر قال : انها رغم ذلك سوف تزول ؟ !

التناول التدريجى للمشاكل . ولهذا السبب اقترحت مصر تطبيق الحكم الذاتى على « غزة » ، وتنتظر لترى ما سوف يفعله الشعب الفلسطينى .

ومصر على يقين من نجاح هذه التجربة ، وسوف يكون نجاحها كخطوة أولى ، حافزا على الاستمرار فى هذه التجربة على نطاق أوسع . فطريق النجاح يبدأ بخطوة .

ويجب أن نجد الأعذار لشعب غزة ، وأن نتناول بالعقل مواقفهم السلبية أو الرافضة لهذه المبادرة . فهم يخافون من قوات الاحتلال . وهم يخافون من منظمات التحرير الفلسطينية . وهم يخافون من الأردن الذى يخاف من سوريا .

أما الموقف الاسرائيلى فيختلف تماما . فهم لا يريدون الحل التدريجى للضفة والقطاع والقدس ، إنما يضعونها معا فى صندوق واحد ليرفضوا معالجتها فى آن واحد .

وعلى الصندوق مكتوبة هذه العبارة : إن كل مشكلة منها مستحيلة الحل ، إذن فهذه المشكلات مجموعة من المستحيلات !

وعندنا فى الأمثال الشعبية أن رجلين قد اختلفا على موضوع دقيق جدا ، هو : هل عدد النجوم فى السماء أكثر من عدد الشعر فى ذيل الحصان ؟

أما حل هذه المشكلة فمشكلتان : الأولى أن أحد الرجلين يقوم باحصاء عدد النجوم ، والثانية أن الرجل الآخر يتولى تعداد الشعر فى ذيل الحصان .

أى أن حل المشكلة الواحدة يقتضى حل مشكلتين فى وقت واحد ! !

ويخبرنا أستاذنا العظيم سقراط : أن رجلا ملأ جيوبه بحبات القمح . فحاول أن يعد ما فى أحد الجيوب . فلما لم يستطع أفرغ كل ما فى جيوبه ليعدها معا — وبديهى ألا يفلح !

وأنا يفلح من يحل المشاكل المعقدة مرة واحدة : الحكم الذاتى وغزة والقدس . ولكن المنطق والطبيعى والذى أفلحنا فيه ، هو أن نبدأ واحدة واحدة ، ونصبر على أنفسنا وعلى غيرنا . وقد جربنا الصبر الطويل ، ويجب أن تمضى فيه . فالاستمرار فى الاعتماد على الصبر ، قمة الصبر . .

ومن المناسب ومن الإنصاف أيضا أن نستعير عيون الشعب الإسرائيلى لننظر بها إلى مشاكله : أى العجز عن حل هذه المشاكل . أى عجز حكومة السيد بيجين التى تقف فى طريق الحل . وذلك بالامتناع عن الحركة ، أو بوضع عقبات تمنعنا نحن أيضا من الحركة .

فعضو الكنيست المعروف أورى أفنيرى هو الذى وقف يطالب رئيس الوزراء بأن يستقيل من منصبه ، ويكفيه شرفا ما حققه بإقامة سفارة لإسرائيل فى القاهرة . فتح السفارة هو إقفال لملف التاريخ السياسى للسيد بيجين !

وذهب هذا الصوت الوحيد لتبتلعه جدران الكنيست أو ضوضاء الأغلبية التى تملكها الحكومة الائتلافية . ولكن لا يعيب هذ الصوت الواحد ، أنه واحد من ١٢٠ صوتا .

فقديما حدثتنا الأساطير عن ملك سار عاريا ، ووراءه الحاشية والوزراء والكبراء والناس جميعا يهتفون للثوب الجميل الذى ارتداه الملك . . ولكن طفلا واحدا قال : ولكنه عريان ! .

وكان صوتا واحدا : ولكن لايعيبه أنه صوت صغير ابتلعته الهتافات والتصفيق !

وفى إسرائيل من يقول : إن هذا هو أقصى ما يستطيع أن يقدمه السيد بيجين . فقد تغير كثيرا جدا . وكان تغيره تنكرا لكل ما نادى به من قبل ، ولو نظر السيد بيجين إلى صورته فى العالم فإنه لا يعرفها . فقد ابتعد كثيرا جدا عن تعاليم أستاذه جابوتنسكى الذى طلب إليه فى إحدى المرات فى سنة ١٩٣٨ أى قبل وفاته بسنتين . . أن يلق بنفسه فى نهر الفستولا .

قال له جابوتينسكى : لاحل عندنا إلا الانتقام وليس المصالحة — أى المصالحة مع الإنجليز والعرب .

وجابوتينسكى هو الذى قال أيضا أمام « لجنة بيل » : إن قيام دولة يهودية على ضفتى نهر الأردن لن يؤدى إلى صدام بين الإنجليز والإسلام ، وإذا حدث فلن يكون شيئا خطيرا !

ولم تقم الدولة على الضفتين ، إنما على ضفة واحدة . ولم يحدث صدام بين

الإنجليز والمسلمين . ولكنه سوف يحدث بين حكومة بيجين و ٨٠٠ مليون مسلم . بسبب موقفه من مدينة القدس !

وإذا كانت حكومة إسرائيل قد وضعت العقبات فى طريق التسوية . فإنها فى نفس الوقت قد جعلت من هذه العقبات موضوعا للمناقشة العنيفة بين الأحزاب الأخرى . وهى بذلك تكون قد أعلنت برنامجها الانتخابى مبكرا عن موعده . ولذلك سارعت أحزاب المعارضة تقدم حلولا لهذه المشاكل .

فحزب العمل بزعامة السيد شيمون بيريز ظهرت له أحاديث سياسية كثيرة . هذه الأحاديث هى استئناف للحكم فى كل القضايا المعلقة . ثم وعد بحلها على نحو أفضل . أى على نحو يوفق بين التمسك الإسرائيلى بسلامة إسرائيل وإغراء الأطراف الاوروبية أن تنتظر حكومة العمل ، أو تتعجل نهاية حكومة الليكود .

فالانسحاب من سيناء لم يعد مشكلة . أى أن هذه الخطوة الحائلة قد قاربت نهايتها .

أما الضفة الغربية فيرى السيد بيريز أنها ذاهبة إلى الأردن . وهو على يقين من أن الملك حسين سوف يتقدم ليطالب بها . والسيد بيريز أعلم زعماء إسرائيل بموقف الملك حسين . .

وإذا كانت السيدة جولدا مائير قد أعلنت أنه لا يوجد شئ اسمه فلسطين . فإن السيد شامير وزير الخارجية قد أعلن أنه لا يوجد شئ اسمه الأردن . وأن الأردن هى فلسطين .

أما المستوطنات التى كان حزب العمل مسئولا عن قيامها . فيرى السيد بيريز أن تبقى هذه المستوطنات كما هى ، وأن تخضع للإدارة الفلسطينية . .

ويؤيد مصر فى أن يبدأ الحكم الذاتى بغزة . .

وهو مثل الليكود يرى أن القدس عاصمة واحدة موحدة إلى الأبد لإسرائيل . .

ومن التقاليد السياسية المعروفة فى إسرائيل . . أن الناخبين لايعطون أصواتهم إلا للصقور الذين يتشددون فى مطالبهم وفى حرصهم على حق الدولة فى أن تبقى فى أمن وفى سلام !

أما كيف أن حزب العمل أكثر تشددا من كتلة الليكود . . فلسبب ليس واضحا فى الدعاية الانتخابية الجديدة : وهو أن إسرائيل ليست محتاجة إلى الضفة الغربية . لأن إسرائيل يجب أن تكون دولة يهودية مائة فى المائة — هذه أحلام الصهيونية ودعاوى التوراة . .

أما الخلافات فى داخل حزب العمل بين الزعيمين إسحاق رابين وبيريز . . فأمرها سهل . والرجلان مختلفان تماما . أما بيريز فهو يعتمد على النفوذ الأوروبى فى حل المشاكل أو الوعد بذلك . وهو تلميذ لكرايسكى . أما رابين فقد جرب الحكم والزعامة . وهو يعتقد أن أمريكا وحدها هى القادرة على الحل . وأنه سعيد بأستاذية كيسنجر له . ثم إنه قادر على اتخاذ القرار . على عكس بيريز الذى يعتمد على حسابات كثيرة . . مراعاة لظروف متغيرة . وبراعته هى فى التوفيق المستمر بين نتائج استفتاءات الرأى العام الإسرائيلى والأوروبى على من الذى سوف ينقذ إسرائيل من نفسها — أى من انقسامها بعضها على بعض . . وتمزقها الداخلى . .

أما الرأى العام اليهودى فى أمريكا فيرى أن حكومة إسرائيل بهذا التشدد الأعمى والخوف المرضى ، سوف تبدد كل مكاسبها . .

فقد اتحدت أوروبا ضدها . ولصالح العرب .

والأمم المتحدة قد توالت قراراتها التى تدين إسرائيل . .

وانعزلت إسرائيل عن العالم كله . .

شيمون بيريز : برنامج انتخابى جديد عن كل المشاكل المعلقة .

الملك حسين : الأردن هى فلسطين . ومشاركته ضرورية فى الضفة والقطاع .

ويرى يهود أمريكا أن رئيس وزراء إسرائيل هو وحده المسئول عن كل ذلك . . وأنه قد وصل إلى نهاية الطريق المرسوم له تاريخيا .

ولكن السيد مناحم بيجين عنده مشاكل أخرى دينية وسياسية . .

فقد عاش حياته كلها ينادى بأن الضفة الغربية هى جزء من إسرائيل الكبرى .

وسوف يموت من أجل ذلك . وليكن ما يكون فى العالم أو فى إسرائيل . .

وعنده مشكلة أخرى : أن السيد عيزر فايتسمان قد أعلن عند خروجه من الوزارة أنه هو الذى كان سببا فى نجاح بيجين . ولذلك قرر بيجين أن ينجح بشخصه وليس بفصاحة أو وسامة أحد . .

وسوف يشكل السيد عيزر فايتسمان حزبا جديدا . وسوف ينضم هذا الحزب بأعضائه المتشددين من تحالف الليكود إلى حزب العمل . ومعهم السيد موشى ديان أيضا . وبذلك يعود بيجين إلى المعارضة . ولكن بعد أن أرهقته المعارك السياسية والبرلمانية والحزبية . .

وقد تنخدع بهذه الخلافات السياسية فى إسرائيل . وتحاول أن تختار منها ما يتفق معنا فى الرأى ، أو يقف معنا ضد حزب ما فى إسرائيل . ولكن هذه الخلافات طبيعية — وهى مظهر من مظاهر الفردية المطلقة فى إسرائيل . وفى نفس الوقت من مظاهر « الجماعية » . فكل واحد فى إسرائيل له رأى . ويحاول أن يكسب آراء أخرى . . فهو ينفرد برأيه أولا . ثم يقنع الآخرين بالانضمام إليه . فالخلافات والخناقات والصرخات والاتهامات مفردات قديمة فى قاموس الطبيعة اليهودية .

وعندما ذهب رئيس وزراء إسرائيل الأسبق ليفى أشكول إلى إحدى الدول الأفريقية ، سأل رئيس الدولة عن الذى فعله بخصومه السياسيين . . فأجاب رئيس الدولة : قتلناهم جميعا . ولكننا لم نأكلهم !

فضحك ليفى أشكول قائلا : على عكس ما يحدث فى إسرائيل ، فنحن نأكل بعضنا البعض . ولكن أحداً لا يقتل أحدا !

وفى كل يوم يتجمع هنا فى مصر علماء اسرائيليون ويهود أمريكان مشغولون بأثر السلام والصلح مع إسرائيل فى المجتمع المصرى . ومن الذى مع السلام . . ولماذا ؟ ومن الذى يخشاه . . ولماذا ؟ ولأنه ليس مسموحا لهم بإجراء استفتاء عام فى ذلك . أو لأننا نحن لم نقم بهذا الاستفتاء ، فإنهم يدورون على الناس من كل فئة . ويسألون ويدرسون ويحللون . .

أما فى المجتمع الإسرائيلى فقد بدأ التغيير عنيفا ابتداء من حرب أكتوبر . ثم جاءت المبادرة والسلام وتطبيع العلاقات والضيق العالمى بحكومة إسرائيل وخوف اليهود من أن يؤدى ذلك إلى كراهية اليهود فى كل مكان . .

فى داخل إسرائيل نجد تمزقا شديدا بين السلام وبين الاستعداد المستمر للحرب ، والحرب على حدود لبنان ، والقلق المستمر من الفلسطينيين .

ومن أشكال الاضطرابات النفسية فى إسرائيل : الهرب من الجندية . . والهجرة إلى خارج إسرائيل - ٨٠٠ ألف هاجروا إلى أوروبا وأمريكا واستراليا . . وأكثرهم من المهنيين . . فهم فى حيرة : هل هناك سلام ؟ . . إذن فلماذا الجيش ؟ هل هناك حرب ؟ . . إذن فأين السلام . واذا كانت حرب فلماذا يحارب يهود إسرائيل بينما ينعم فى الرفاهية يهود أمريكا وأوروبا . . إن فى استطاعة أى أحد أن يترك إسرائيل ويبعث لها بما تريد من المال ، وأن يظل بعيدا عن الحياة الشاقة والاختناق الدائم فى إسرائيل . ثم انتشرت المخدرات وإدمان الخمور . . وكذلك العنف : السرقة بالإكراه وهتك الأعراض . . وضرب الآباء لأطفالهم ، والرجال لزوجاتهم . . ثم خطف الأطفال . . والارتفاع المستمر فى الأسعار .

إن الصورة اختلفت تماما عن الذى كتبته السيدة يائيل ديان فى أولى رواياتها « وجه جديد فى المرآة » - كان هناك وجه واضح المعالم ، وكانت هناك مرآة صافية ، وكان كل شئ أجمل وأروع ، ودعوة إلى الاستمتاع بالحياة . فأين هى الآن ؟

حتى الذين يهاجرون من روسيا لايزالون يفضلون أمريكا على إسرائيل . وأكثر المهاجرين من الغربيين ، وبذلك سوف يصبح اليهود الشرقيون أغلبية متفوقة . وسوف يؤدى ذلك إلى خلل اجتماعى لاتعرف إسرائيل بقيادتها الغربية ، أن تجد له حلا !

ايزنهاور : التأخير فى الفهم واتخاذ القرار ورد الفعل هو سبب كل هزيمة .

جولدا مائير : هى التى قالت إنه لايوجد شئ اسمه فلسطين .

فإذا كانت الحرب قد وحدت بين كل الشعوب اليهودية . فإن السلام قد باعد بينها وأطلقها بعضها على بعض . . ثم أفزعها من النهاية . ولذلك فالمزاج العام فى إسرائيل : قاتم حزين . .

ويكفى أن يمر أى إنسان على القنصلية الأمريكية فى تل أبيب ليجد طابورا يزداد طولا كل يوم . . إنهم أناس ضاقوا بأرض المعاد المقدسة وهربوا إلى أمريكا . .

فهل من الضرورى أن نستعير عبارة قالها المؤرخ الانجليزى الكبير أرنولد توينبى ، وكان فى استراليا يوم انتصرت إسرائيل فى سنة ١٩٦٧ . قال : ولكن الدولة الإسرائيلية ليست جسما طبيعيا فى العالم العربى . ولابد أن تزول !

أما حجج المؤرخ الكبير فلم يشأ أن يذكرها بوضوح . ولذلك يمكن أن يقال مؤقتا إن هذه العبارة غامضة ، وإن البقاء والزوال مرهونان بعوامل لانعرفها ، ولكن المعنى هو أن إسرائيل فى حرب داخلية ، وفى حرب مع العالم كله . وهى وحدها التى تشترى وسائل دمارها أو القضاء على سلامها الداخلى والخارجى . .

وربما كان من التبسيط الشديد أن يقال إن حكومة بيجين هى السبب وحدها . وإن كان السيد بيجين هو الذى يجمع الحجارة التى يرجمه بها الآخرون .

وفى حديث طويل بين الرئيس السادات وبين د . شمعون شامير الذى كان رئيسا لمعهد شيلوح للدراسات السياسية ، والذى انشأوا له كرسى « تاريخ اليهود فى مصر » قال الرئيس السادات : إننى أعتقد أن مشكلة القدس أسهل حلا من مشكلة الضفة الغربية . وأن حل هذه القضية سوف يجعل إسرائيل تكسب ٨٠٠ مليون مسلم فى خطوة واحدة . وتتفادى بذلك العداء العالمى لها .

ومن رأى الرئيس السادات أن تبادر إسرائيل بوضع أعلام عربية أو إسلامية على الأماكن المقدسة فى المدينة .

وهذه خطوة قصيرة لإسرائيل ، ولكنها كبيرة جدا للعالم الإسلامى والمسيحى .

وخطوة أخرى صغيرة هى تطبيق الحكم الذاتى على غزة . .

وفى رأى الرئيس السادات أيضا : أن تبدأ ذلك الآن . .

وعلى الشعوب اليهودية والشعب الإسرائيلى أن يجد تفسيرا لمعنى كلمة « الآن » . . هل هى هذا العام . . أو هذه الانتخابات الأمريكية . أو الانتخابات الإسرائيلية المبكرة . .

وإذا كان لابد من نصيحة من أحد لأحد فهى السطور الأولى التى جاءت فى كتاب « الحرب الحقيقية » للرئيس السابق نيكسون . يقول : كارثة الهزيمة فى الحروب يمكن إيجازها فى ثلاث كلمات : أن تتأخر كثيرا .

« أن تتأخر كثيرا فى فهم الهدف المميت للعدو » .

« أن تتأخر كثيرا فى معرفة الخطر القاتل » .

« أن تتأخر كثيرا فى الاستعداد له » .

« أن تتأخر كثيرا فى توحيد كل القوى الممكنة للمقاومة » .

« ثم أن تتأخر كثيرا فى الوقوف إلى جوار أصدقائك » .

وهذه الكلمات قالها أحد أبطال الحرب العالمية الثانية الرئيس أيزنهاور !

ومن الواضح أن السيد مناحم بيجين قد أخر مسيرة السلام كثيرا عن بداية خطوة جديدة لأمن الجميع !

ان المشاكل تحاصره ولكنها لم تهزمه بعد !

وإذا كان السيد بيجين مشغولا فقط « بالانتقام » من معارضيه فى إسرائيل واوروبا وأمريكا والمتعجلين للوجوه الجديدة وليس مشغولاً بإكمال السلام، فمن الذى يطلب إليه أن يلقى بنفسه فى النهر - هذه المرة ؟ .